مجلة تسليم
Journal Homepage: https://tasleem.alameedcenter.iq
ISSN: 2413-9173 (Print) ISSN 2521-3954 (Online)

في التَّسْلِيْم النبويّ

فَلْسَفَةُ المَبْنَى وَالمَعْنَى فِيْ حَدِيْثِ الإِحْسَانِ لِلنَّبِيِّ الكَرِيْمِ ﷺ

عبد الله مصطفى سيف الدين [1]

١ جامعة البعث / كُلِّيَّةُ الآداب والعلوم الإنسانيَّة / قسم الفلسفة، سوريا؛

Sef.abd70@gmail.com

دكتوراه في اللغة العربية / أستاذ

تاريخ التسلّم	تاريخ القبول	تاريخ النشر
٢٠٢٤/٢/١	٢٠٢٤/٢/٢٧	٢٠٢٤/٣/٣١

المجلـد (١٧) العـدد (٢٩)
رَمَضَان ١٤٤٥هـ-آذَار ٢٠٢٤م

DOI:
10.55568/t.v17i29.23-42

مُلَخَّصُ البحْث:

يهدف هذا البحث الفلسفيّ اللُّغويّ المتواضع إلى تتبع معنى الإحسان وسُبله وغاياته. وذلك كما دلَّت عليها البنية اللُّغويّة والدلالة المفهوميَّة للحديث النبويّ الشريف الذي نصَّه: "قال: ما الإحسانُ؟ قال: أنْ تعبدَ الله كأنَّكَ تراهُ، فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنَّهُ يراكَ". وذلك وفق قراءة فلسفيَّة تحليليَّة، اتَّخذت من نهج فلسفة اللُّغة في قراءة النصوص سبيلاً لتحقيق أغراض البحث. وكان التركيز حسب حاجة البحث على: أوَّلًا- محاولة التعريف بفلسفة اللُّغة وتحديد موضوعاتها. ثانياً- التعرُّف على مفهوم الإحسان وتحديد مدلولاته الأخلاقيَّة والدينيَّة والفلسفيَّة. ثالثاً- إجراء قراءة فلسفيَّة لغويَّة لمبنى الحديث المذكور ومعانيه ودلالاته.

الكلمات المفتاحيَّة: الإحسان، فلسفة اللُّغة، المبنى، المعنى، الدلالة

Philosophy of Structure and Content in Hadith of Alahsan to the Noble Prophet (PBUT)

Abdullah Mustafa Saif Al-Din [1]

1 Ba`ath University / College of Arts and Human Sciences / Department of Philosophy, Syria;

Sef.abd70@gmail.com
PhD. in Arabic Language/ Professer

Received:	Accepted:	Published:
1/2/2024	27/2/2024	31/3/2024

DOI: 10.55568/t.v17i29.23-42

Volume (**17**) Ramadan 1445 AH
Issue (**29**) March 2024

CC BY NC

Abstract:

This modest philosophical-linguistic research aims to trace the meaning of charity, its ways, and its goals. This is as indicated by the linguistic structure and conceptual significance of the noble Prophetic hadith, which reads: "He said: What is ihsan? He said: To worship God as if you see him, and if you do not see him, then He see you. This is according to an analytical philosophical reading, which took the approach of the philosophy of language in reading texts as a way to achieve the research objectives. The focus was, according to the need of the research, on: First, an attempt to define the philosophy of language and determine its topics. Second, it is to identify the concept of charity and determine its moral, religious and philosophical connotations. Third , it is to conduct a philosophical-linguistic reading of the structure of the aforementioned hadith, its meanings and connotations.

Keywords: benevolence, philosophy of language, structure, meaning, connotation

المقدِّمة:

يتَّفق معظم الفلاسفة، خصوصاً المثاليّين، على أنَّ الإنسان كائنٌ أخلاقيّ متديِّن؛ ترشده الفطرة السليمة التي فطره خالقه عليها إلى فكرة الألوهيَّة. أي الإيمان بضرورة وجود الإله الخالق والمدبِّر للكون بجميع مظاهره وارتباطات حيثيَّاته "باعتبار أنَّ الله علّة أولى للوجود"[١] وأنَّ "العالم لا يوجد في ذاته ولذاته"[٢] . لا بل إنَّ عقل الإنسان الذي تميز به، يوصله بما أُودِع به من ملكات التأمُّل والتبصُّر إلى مراتب من التدبُّر والفهم والتقدير للإله الذي أحسن كلَّ شيء خلقه. لذلك فإنَّ معرفة الإنسان المتبصِّر بالمبدِع سبحانه وبالمبدَع وإتقانه، معرفة حقَّة لا بدَّ أن تجعله كائناً مؤمناً، يسعى جاهداً وبإرادته، لتحقيق شطرٍ من الكمال الأخلاقيّ محاولاً الإحسان ما استطاع في جميع أفعاله، لعلَّه يصل إلى مستوى من الطُّمأنينة يوفِّر له حظًّا من السعادة.

تلبيةً لهذا الطموح واستكمالاً لمتطلَّبات تحقيقه، أُوجِدت الشرائع والأديان السماويَّة، لتُبيِّن للناس مراتب الكمال ومعانيه وكذلك سبل تحقيق سعادتهم الحقّة. واستكمالاً للفضل، بُعِث الأنبياء والرسل مرشدين مخلِّصين بالقول والفعل، قادةً وأسوة حسنة للسير في الطريق القويم؛ وكلّ هذا إحسانٌ من الخالق سبحانه لخلقه عموماً وللإنسان العاقل المريد والمختار خصوصاً.

لهذا يحاول بحثنا المتواضع، الإشارة فلسفيًّا إلى تجلِّي بعض معالم الإحسان ومراميه بين الخالق سبحانه ومخلوقاته؛ والتدليل على بعض مظاهر الامتثال المفترضة لهذا الإحسان وأبعاده عند الإنسان المؤمن. كلُّ ذلك في سياق فلسفة المبنى والمعنى للحديث النبويّ الشريف: **"قال: ما الإحسانُ؟ قال: أنْ تعبدَ الله كأنَّكَ تراهُ، فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنَّهُ يراكَ"**. وبصيغة أخرى، نحاول كتابة بحث فلسفيّ عن الإحسان كما حدَّد آفاقَه هذا الحديث الشريف، مرتكزاً بجميع تفاصيله على المعالم الأساسيَّة لفلسفة اللُّغة عموماً واللُّغة العربيَّة خصوصاً على وفق معطيات هذه الفلسفة وبيانات مفكِّريها. إنَّه بحث فلسفيّ في الإحسان وثماره على الإنسان فرداً وجماعة. واستجابة لهذه الغاية تضمن البحث ثلاثة مباحث فرعيَّة: الأوَّل حول اللُّغة وفلسفتها، والثاني عن الإحسان، والثالث قراءة فلسفيَّة لغويَّة لنصّ الحديث.

١ الصالح، عبد الحميد. مبادئ الفلسفة (دمشق – سوريا: المطبعة الجديدة، ١٩٨٨)، ٩٠.
٢ الصالح، ٩١.

أوَّلاً ـ حول اللُّغة وفلسفتها:

١ - اللُّغة: التعريف والوظيفة

يُعَرِّف ابن حزم الأندلسيّ اللُّغة بأنَّها: "ألفاظ يُعبَّر بها عن المُسَمَّيات، وعن المعاني المراد إفهامها"[٣]. إذ يكاد يكون لكلِّ جماعة لغتها الخاصَّة بها، فاللُّغة بأبسط معانيها وسيلة تواصل توافقيَّة، مكتسَبة بالتربية. يمكننا استنباط اصطلاح إجرائيٍّ للُّغة يشير إلى كونها وسيلة منظَّمة تستعمل الكلمات أو الألفاظ كرموز للتعبير عن الأفكار والمشاعر. وتتميز كلُّ لغة بوجود قواعد عُرفيَّة متَّفق عليها تضبط استعمال مفرداتها من قبل الناطقين بها؛ كقواعد النحو والتعبير والصرف.. وغيرها. وإنَّ الكلمات أو ما يسمى مفردات اللُّغة تحمل معانيَ مختلفة يمكن تفسيرها من قبل المتلقِّين. يذهب **كروتشي** إلى أنَّ: "اللُّغة انعكاس لخصائص الشعب الناطق بها، وبالتالي فهي ليست ظاهرة طبيعيَّة تؤثِّر فيها الأحداث المادِّيَّة، وإنَّما هي فعل فكريّ إبداعيّ له علاقة بالشعور والعاطفة"[٤].

يمكن أن نستنتج تعريفاً اشتراطيًّا للُّغة بما يخدم أهداف بحثنا هذا **بأنَّها: نسق من الرموز أو الإشارات المرسومة والمنطوقة يستخدمها الإنسان للتفكير والتعبير والمعرفة والتواصل مع غيره.** ولا يمكن أن يكون لكلِّ إنسان لغته الخاصَّة، كما هو حال المشاعر، بل لكلِّ جماعة لغة أو لغات خاصَّة بها ومتسايرة مع شكل حاجة أفرادها للتواصل، ولذلك كانت اللُّغة توافقيَّة وخاصَّة.

يصف **ابن خلدون** اللُّغة، بقوله: "اعلم أنَّ اللُّغاتِ كلَّها مَلَكاتٌ شبيهة بالصناعة، إذ هي مَلَكات في اللِّسان للعبارة عن المعاني، وجودتها وقصورها بحسب تمام المَلَكة أو نقصانها، وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، وإنَّما هو بالنظر إلى التراكيب"[٥]، ونفهم التراكيب هنا بأنَّها العبارات الكاملة من حيث المعنى. وهذا يجعل من اللُّغة وسيلة إبداعيَّة باستمرار، لأنَّها تُتيح للمفكِّر إمكانيَّة إنتاج تراكيب أو تعابير جديدة عن الأحوال والحوادث والأشياء. وليس بالضرورة أن تكون هذه التعابير مألوفة للناطق باللُّغة دوماً، لذلك يُلجَأ إلى الشرح والتفسير والتأويل أحياناً. وبناءً على ذلك تتَّسم اللُّغة دوماً بالتنوُّع وإتاحة فرص الإبداع؛ إذ من

٣ خليف، سميحة ناصر. "مفهوم اللغة اصطلاحاً،" 2024 https://mawdoo3.com.

٤ عبد الرحمن، صالح. بحوث ودراسات في علوم اللسان (الجزائر: موفم للنشر، ٢٠٠٧)، ١٤٣.

٥ أبوداود، ولاء. "مفهوم اللغة،" ٢٠٢٤.

الممكن التعبير عن الشيء نفسه أو المعنى نفسه، باستعمال كلماتٍ جديدة تختلف عن كلمات التعابير السابقة. ولكنْ ضمن ضوابط المنطق وقواعد اللُّغة وعلم الدلالة، فلا تتحوَّل إلى سفسطائيَّة خاوية. وهذه الإبداعيَّة تجعل اللُّغة دائمة التغيُّر التطوريّ استجابة لحاجات أبناء العصر وأحوال المصر اللَّذين تُستعمل فيهما، فتنشأ فيها معانٍ جديدة وتُنسَى معانٍ قديمة تبعاً لاهتمام الناطقين بتلك اللُّغة واستعمالهم لها، وهذا معيار حيويَّة اللُّغة.

يتبيَّن لنا ممَّا سبق أنَّ الوظيفة الأساسيَّة للّغة تتجلَّى في كونها وسيلة التواصل الأجدر لنقل المشاعر والأفكار من المستوى الشخصيّ إلى المستوى الاجتماعيّ، إذ تنتقل الأفكار بفضل اللُّغة من موجود بالقوَّة إلى موجود بالفعل. ذلك أنَّ التفكير بما هو عمليَّة نفسيَّة تقوم بها الذات العارفة تجاه موضوع معرفتها، وأيّاً كان نوع ذلك التفكير أو مستواه، لا غنًى له عن التعبير كوسيلة تواصل تشاركيَّة أو تفاهم اجتماعيَّة، إذ تبقى الأفكار حبيسة النفس أو الذهن على المستوى الشخصيّ من دون هذا التعبير، ولا يمكن تداولها أو تبادلها مع أشخاص آخرين، ولذا لا يمكن بحالٍ من الأحوال أن تُدرَس أو تُناقَش من قبل المفكِّرين. ولهذا فإنَّ "اعتبار اللُّغة وسيلة تعبير وتفاعل، أدّى إلى تعريفها -على سبيل المَجاز- كأداة مميِّزة للإنسان وظيفتها الأساسيَّة هي التواصل"[٦] والتبادل متعدِّد الجهات ومعقَّد الوظائف.

٢- فلسفة اللُّغة: التعريف والأهمِّيَّة

يرتبط الفكر واللُّغة فيما بينهما ارتباطاً جدَّ وثيق، لأنَّنا ببساطة لا نفكِّر إلَّا من خلال اللُّغة. ولذلك كانت اللُّغة وما تزال من أكثر القضايا التي حظِيَت باهتمام الفلاسفة عبر العصور، ورُبَّما هي الأبرز في الفلسفة المعاصرة. نظراً لتعقُّد المفاهيم وصعوبة التوافق على دلالاتها وأثر ذلك على استعمالاتها. فنجد، في العلوم الاجتماعيَّة خصوصاً، للمصطلح الواحد عشرات المعاني والتفاسير المتقابلة والمتداخلة إلى درجة التناقض أحياناً. فلا غرابة في تسمية بعض المفكِّرين للمرحلة المعاصرة من تاريخ الفكر الفلسفيّ "بالتحوّل اللُّغويّ للفلسفة نظراً لاهتمام الفلاسفة المعاصرين باللُّغة وتحليلها"[٧] . ولعلَّ هذا التحوُّل هو الذي

٦ قارة، نبيهة. مدخل إلى فلسفة اللغة (صفاقس، تونس: الوسيطي للنشر، ٢٠٠٩)، ٩.
٧ الحلايقة، غادة. "مفهوم اللغة في الفلسفة،" https://mawdoo3.com, 2024

تطوَّر ليَظهر توجُّه فلسفيّ جديد سُمِّي بفلسفة اللُّغة. ولذلك، فإنَّه على الرغم من صياغة الأفكار والمفاهيم بلغاتٍ مختلفة، وبطرائق أخرى غير اللُّغة، إلَّا أنَّ غالبيَّة تلك الطرائق ترتبط بشكلٍ كلّي ووثيق باللُّغة. وبما أنَّ اللُّغة هي التجمع الأمثل للمفاهيم والمعاني، بات يستحيل من دونها الوصول إلى التفكير المُرَكَّب والإبداعيّ في الحوادث والأشياء التي تُحوَّل بدورها إلى صور ورموز تُخَزَّن في الذاكرة وتُرسَم في المعاجم. وهو ما جعل فلسفة اللُّغة ترتكز أساساً على دراسة التفكير الإنسانيّ بناءً على الرموز اللُّغويَّة التي يتمكّن العقل من تشكيلها وتخزينها وكشف الروابط بينها.

صحيح أنَّ اللُّغة قديماً كانت مجرّد أداة للتعبير عن المشاعر والأفكار، لكنّ هذه الفكرة لم تَعُد هي السائدة وحدها اليوم؛ فقد تمّ تحديد **الفلسفة** على أنّها تحليلٌ للمفاهيم وتوضيح لمعاني الألفاظ ودلالاتها. يقول **ابن سينا**: "ومعنى دلالة اللّفظ: أن يكون إذا ارتسم في الخيال اسمٌ، ارتسم في النفس معنى. فتعرف النفس أنَّ هذا المسموع لهذا المفهوم، فكلّما أورده الحسُّ على النفس التفتت إلى معناه"[٨] . ومن أشهر سُبل الفلسفة إلى تحليل المفاهيم، التركيز في آليّة الاستعمال للألفاظ والمفردات التي تعبّر عن ارتباط الأشياء بالأفكار. وذلك لأنَّ السلوك الإنسانيّ الذي تُستعمل فيه اللُّغة – التفكير والتعبير– من أكثر السلوكيَّات التي يقوم بها الإنسان براعةً وتعقيداً، لأنَّه يعكس كلَّ سمات شخصيَّة صاحبه واهتماماته تقريباً، ممهِّداً بذلك لمواقف المتواصلين معه وردود أفعالهم المترتبة على سلوكه. أضف إلى ذلك أنَّ تحليل اللُّغة المستعملة في التعبير يمنح الشُّرَّاح والنقَّاد مفاتيح الحلّ للكثير من المشكلات الفلسفيَّة، وخصوصاً تلك المشكلات التي تنجم عن سوء استعمال المفاهيم أو اختلاف تحديد المعاني بسبب التدخلات الإيديولوجيَّة واللاموضوعيَّة.

إذاً يمكن القول مع محمود فهمي زيدان: "إنَّ فلسفة اللُّغة مجموعة مترابطة من الدراسات، يعكف عليها المناطقة والفلاسفة، تنشأ عمّا يُقلِقهم من أسئلة ومشكلات تتعلَّق باللُّغة.."[٩] وضبط استعمالاتها غير المحدودة. فمشكلات هذه الفلسفة (فلسفة اللُّغة) ليست مشكلات

٨ ابن سينا، الشفاء(المنطق)، تحقيق. محمود الخضري (القاهرة: المطبعة الأميريّة، ١٩٥٢)، ٦٠.
٩ زيدان، محمود فهمي. في فلسفة اللغة (بيروت – لبنان: دار النهضة العربيّة، ١٩٨٥)، ٥.

فلسفيَّة بحتة، بقدر ما هي مشكلات لغويَّة مرتبطة بالفلسفة؛ ذلك أنَّ فلسفة اللُّغة هي: "النظر في اللُّغة بوصفها مشكلة فلسفيَّة تستدعي الدراسة من أجل الوقوف على حقيقتها"[١٠] . فاللُّغة في حدّ ذاتها مشكلة فلسفيَّة في تصوّرنا؛ وهذا التصوّر لا يتعارض مع رؤية الفيلسوف اللُّغويّ "**لودفيغ فيتجنشتاين**" التي عكستها عبارته المشهورة: "إنَّ الفلسفة كلّها عبارة عن نقد للّغة"[١١] إذ أُوِّلَت ليصبح معنى اللُّغة فيها هو النصّ الفلسفيّ المنقول بواسطة اللُّغة؛ أي التعبير اللُّغويّ دون التجارب الفلسفيَّة الخاصَّة للفيلسوف.

إنَّ الفلسفة أعمق بكثير من كونها مجرَّد نقدٍ للُّغة، وفلسفة اللُّغة أعمق من مجرَّد تحليل المفاهيم أو شرحها. وبيان ذلك بشأن فلسفة اللُّغة، أنَّ لكلِّ نصٍّ لغويّ عمقاً فلسفيّاً يتناسب مع دلالات الألفاظ المستعملة فيه للتعبير عمَّا يحتمله من الأفكار، ويتضمَّنه من المشاعر، وما ينقله من الأخبار. فالفكرة ترتبط بالدلالة المعرفيَّة، وتزيدنا دراية بموضع النصّ. أمّا الشعور، فمرتبط بالرغبة والرهبة أي بالعاطفة المحفِّزة على العمل، وبالتالي سلوك الإقدام أو الإحجام، وما يترتَّب على كلٍّ منهما من ثواب أو عقاب. أما الخبر، فرهانه التصديق أو التكذيب، وهذا شأن برهانه المساق عليه والمتضمِّن في ذلك النصّ عبارة أو إشارة. يقول **جون سيرل**: "فلسفة اللُّغة محاولة تهدف إلى وصف واضح ودقيق من زاوية نظر فلسفيَّة، لبعض الخاصِّيَّات العامَّة المتعلِّقة باللُّغة مثل الإحالة والمعنى والصدق... إنَّها حديث فلسفيّ حول اللُّغة"[١٢] .

وهكذا يمكن لنا أن نستنبط ممّا ذُكِر من التعاريف والتواصيف لفلسفة اللُّغة، تعريفاً إجرائيّاً يخدم أغراض بحثنا، نصُّه: **إنّ فلسفة اللُّغة هي البحث الفلسفيّ المُعمَّق في اللُّغة بنيةً ومعنىً وذلك من الجهة الوظيفية لها، باعتبارها أداة للتفكير ووسيلة للتعبير.**

انطلاقاً من هذا التعريف ومما سبّق أن عرضناه حول اللُّغة وفلسفتها، يمكن أن نصل إلى تحديد قصدنا من تعبير "**فلسفة المبنى والمعنى**" الذي تضمَّنه عنوان هذا البحث. **وهو إجراء دراسة فلسفيَّة حول البنية اللُّغويَّة لهذا الحديث الشريف من حيث التراكيب اللَّفظيَّة المنطوقة فيه.** محاولين من جهة المبنى أن نبيِّنَ ما هي الأشياء التي تشير إليها ألفاظ الحديث المقصود،

١٠ صويلح، هشام. "فلسفة اللغة،" مجلة المغربي للدراسات اللغويّة مجلد٣، العدد٢ . ١٧٧ : (٢٠٢٠).
١١ فيتجنشتاين، لودفيغ . رسالة منطقيّة فلسفيّة، ترجمة. عزمي إسلام (القاهرة – مصر: مكتبة الأنجلو المصريّة، ١٩٦٨)، ٨٣.
١٢ سيرل، جون . الأعمال اللغويّة، بحث في فلسفة اللغة، ترجمة. أميرة غنيم (تونس: دار سيانترا، ٢٠١٥)، ١٨_ ١٩.

باعتبارها كلمات ترتبط بصور ذهنية محدَّدة ويتفاهم عليها أصحاب اللسان العربي. أمّا من جهة المعنى، فستكون دراسته استيضاحاً للدلالة، وبحثاً عن الفهم والتفسير، وربَّما التأويل أحياناً، لتلك الألفاظ التي وردت في المبنى. إنّ هذه الدراسة هي تحليليَّة إجرائيَّة، نرنو من خلالها إلى عكس صورة جزئية عن فلسفة اللُّغة عموماً، وفلسفة اللُّغة العربية خصوصاً، وفق ما تسمح به بنية ذاك الحديث ودلالاتها. وهذه الغاية تستوجب منّا الحديث عن مفهوم الإحسان بغرض تحديده من جهة اللُّغة، والوقوف على دلالته الأخلاقية من جهة الفلسفة والإسلام، قبل الخوض في قراءة فلسفية للغة الحديث المعنيّ.

ثانياً- الإحسان بين الفلسفة والإسلام:

١-الإحسان لغةً:

الإحسانُ مصدرٌ لأحسَنَ يُحسِنُ إحساناً، وهو من حَسُنَ بمعنى أُتقِنَ وظَرُفَ أو كمُلَ، وهو ضدّ الإساءة، إنَّه إجادة العمل وإتقانه وإخلاصه. ويطلق على معنيين:

الأول: متعدٍّ بنفسه. كقولك: أحسنت كذا، وفي كذا، إذا حسَّنتَه وكمَّلتَه.

الثاني: متعدٍّ بحرف جرّ، كقولك: أحسنتُ إلى كذا، أي: أوصلتُ إليه ما ينتفع به[١٣].

وكلا المعنيين يفيد جهة الصَّرف اللُّغويّ لكلمة الإحسان لا معنى الإحسان ولا فحواه، فالاختلاف بينهما عائدٌ إلى الكلمة من حيث الإضافات اللُّغويَّة عليها. ولا يظهر جوهر الإحسان ولا معناه بالشكل الذي يتطلَّبه التعريف بالجنس والفصل أو الخاصّة. ففي التحديد اللُّغويّ تجدُنا أمام مستوى التعريف الاسمي أو اللفظ الذي تحدده المعاجم. "الحَسَنُ: عبارة عن مبهج مرغوب فيه، وذلك على ثلاثة أضربٍ: مستحسَنٌ من جهة العقل. ومستحسَنٌ من جهة الهوى، ومستحسَنٌ من جهة الحسِّ. والحَسَنة يعبر بها عن كلِّ ما يسرُّ من نعمة تنال الإنسان في نفسه وبدنه وأحواله، والسيئة تضادّها"[١٤].

لكنّ هذا التحديد، رغم أهميته، لا يفي بأغراض هذا البحث، فلا بد لنا من محاولة تحصيل مستوى التعريف بالحدّ التام أو الناقص على السواء. وهذا يجعلنا نَنشُد محاولة تحديد الإحسان وفق الدلالة والمعنى من جهة فلسفية.

١٣ الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد. مختار الصحاح، تحقيق. أحمد عبد الغفور عطار، ط٤ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٧)، ٥/ ٢٠٩٩; الإفريقيّ،ابن منظور .لسان العرب، ط٣ (بيروت: دار صادر، ١٤١٤)، ١٣/ ١١٧.

١٤ الأصفهانيَ، الراغب. مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق. صفوان داوودي، د.ت. ٢٣٥.

٢- الدلالة الفلسفيَّة لمفهوم الإحسان:

إنَّ الدلالة موضوع فلسفي لغوي مشترَك، ولمّا كان علم الدلالة **يعرف**: "بالعلم الذي يدرس الشروط الواجب توافرها في الرمز حتى يكون قادراً على حمل المعنى"[١٥ ١٦]، فإنَّه ولتحديد هذه الشروط وبيان معاني تلك الرموز تُستدعى فلسفة اللُّغة بإلحاح. وبالحديث عن الإحسان نجد أنَّ دلالة مفهومه من جهة فقه اللُّغة وفلسفتها، تتضمن إشارة لصفة فعل يقوم به كائنٌ عاقلٌ مريد. فالإحسان من جهة الإله نحو الإنسان بمشيئته تفضلاً وبما هو إله. أمّا الإحسان من جهة الإنسان لذاته ولغيره فلا يكون إلّا بإرادته واختياره، وعن دراية وبقصدٍ رفيع الشأن. وهكذا يتميَّز الفعلُ الحَسنُ عن آخر مشابهٍ له، ولكن باتجاه الإساءة أو من دون ميزة الإحسان، إذ ليس بالضرورة أن يكون نقيضه ولا ضدّه؛ كأن يقوم الإنسان بعمل فاضلٍ، ولكن يتخلَّله رياء أو حبّ إطراء، فما تخلَّله لم يؤثِّر في قيمته المادِّيَّة بل أثر في نتيجته أو مردوديَّته المعنويَّة. أي إنَّ عدم الإحسان ليس إساءة ولا سوء تدبير، ولكنَّه سوء يشوب النِّيَّة والتقدير لمنزلة العمل ولمنزلة صاحب العمل ولمنزلة من يُتقرَّب إليه بالعمل (الله ﷻ). وهذا مدخل أخلاقيّ دينيّ دقيق ترصده فلسفة الأخلاق في عرضها لضرورة فعل الخير لذاته أو لمجرَّد محبَّة الخير فقط. ولذلك فإنَّ عملاً لا يتّصف بالإحسان مهما كانت قيمته الاجتماعيَّة الظاهرة، يبقى عملاً غير صالح شرعاً.

لكنَّ عدم صلاحيَّة العمل في نظر المُشَرِّع، ليست لعدم نفع ذلك العمل أو لعلَّةٍ في ذاته، بل لعلَّةٍ أو مرض في قلب العامل كالنفاق والحقد والرياء؛ ولذلك كان شرط الإحسان عند المُشرِّع هو الإيمان، إذ يُستمَدُّ ذلك من مبنى الحديث الشريف الذي نحن بصدده، وقد ورد فيه تعريف الإحسان بعد تعريف كلٍّ من الإيمان والإسلام بالترتيب* . كما يُستمَدُّ ذلك من الآية الكريمة ﴿فِي قُلُوْبِهِم مَرَضٌ﴾ (البقرة ١٠) وسياقها(البقرة ٨، ٩، ١٠، ١١).

---

١٥ بن يونس، شهرزاد. محاضرات في علم الدلالة (الجزائر: جامعة الأخوة منتوري قسنطينة١، ٢٠٢٠)، ٥.

١٦ عمر، أحمد مختار. علم الدلالة، ط٥ (القاهرة: عالم الكتب، ١٩٩٨)، ١١.

* نص الحديث الشريف كما ورد: "كان النبي ﷺ بارزاً يوماً للناس، فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث. قال: ما الإسلام؟ قال: الإسلام أن تعبد الله ولا تُشرك به، وتقيم الصلاة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان. قال: ما الإحسان؟ قال: أن تعبُد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك"، رقم٥٠، ص١٧.

فالإحسان شرعاً كما تُحدِّده كتب الفقه والإرشاد لعلماء الدين وبعض الفلاسفة المسلمين يكون من المؤمن على مستويين متلازمين ومتكاملين: الأوَّل على صعيد علاقة الإنسان بغيره من المخلوقات، وهو الإحسان لعباد الله، ويكون إمَّا واجباً أو مُستحَبًّا، ويدخل في بابه إحسان المرء لنفسه؛ أمَّا الثاني، فهو الإحسان في عبادة الله سبحانه[١٧] . وكلا المستويين مشمول بمعنى الحديث الشريف الذي نحن بصدده. لقد أمر الله عزَّ وجلَّ بالإحسان في كلِّ شيء ولكلِّ شيء، فقال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة ١٩٥). وقال النبيّ ﷺ وسلَّم: "إنَّ الله كتب الإحسان على كلِّ شيء"[١٨] . ولهذا كان "الإحسان على وجهين: أحدهما: الإنعام على الغير، يقال أحسن إلى فلان، والثاني: إحسان في فعله، وذلك إذا علم علماً حسَناً أو عَمِل عملاً حسناً، وعلى هذا قول أمير المؤمنين عليه السلام : "الناس أبناء ما يُحسِنون"[١٩] أي: منسوبون إلى ما يعلمونه وما يعملونه من الأفعال الحسنة"[٢٠] .

وهذه المعاني كلّها وإن كانت ذات صلة وثيقة بإتقان العمل وإحكامه، فإنَّها تشير بنيةً ومعنىً إلى ارتباط الإحسان بالإرادة الطيِّبة والنيَّة الحسنة، أي الانصياع التامّ لما كتب الله سبحانه. وهي التي توجِب محبَّته. ولذلك كان الله تعالى قريباً من المحسنين، وهو قرب اتِّفاق واشتياق لا قرب مكانة ولا مساكنة، لأنَّ الله تعالى مصدر كلِّ إحسان وهو المحسن سبحانه. "وأكثر ما جاء في القرآن من الحَسَن، **فللمستحسن** من جهة البصيرة، وقوله تعالى: ﴿الذين يستمعون القول فيتَّبعون أحسنه﴾(الزّمر ١٨)، أي الأبعد عن الشبهة. كما قال ﷺ: "إذا شككتَ في شيء فدعْ""[٢١] .

إنَّ معرفة الإحسان على الوجه الأمثل تتطلَّب معرفة المُحسِن بقدر الاستطاعة ومعرفة الفضل بقدر الحاجة وضرورتها، وهذه المعرفة إذا كانت من العبد بحقِّ الله سبحانه، فإنَّما تكون على وجوهٍ عدَّة، لخّصها الراغب الأصفهانيّ في عبارة دقيقة عندما تعرَّض لمدلول قوله تعالى:﴿ومن أحسنُ من الله حكماً لقومٍ يوقنون﴾ (المائدة ٥٠) وذلك بقوله: "إن قيل: حكمه لمن يوقِن ولمن لا يوقن فلمَ خصَّ؟ قيل: القصد إلى ظهور حسنه والاطِّلاع عليه، وذلك

١٧ الجوزيّة، محمد بن قيم. تهذيب مدارج السالكين (بيروت – لبنان: مؤسسة الرسالة ناشرون، ٢٠٠٤)، ٤٥٦_ ٤٥٧.
١٨ النيسابوري، مسلم بن الحجاج .صحيح مسلم، ط٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.).
١٩ الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، شرح. محمد عبده (بيروت: دار المعرفة، د.ت.)، ٦٧٤.
٢٠ الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ٢٣٦.
٢١ الأصفهاني، ٢٣٦.

يظهر لمن تزكّى واطّلع على حكمة الله تعالى دون الجَهَلة"[٢٢] .

أمّا دلالة الإحسان في الأخلاق وفلسفتها، فيظهر لدينا من خلال الاستدلال الآتي: إنّه لما كانت الأخلاق لا تكون في المخلوقات إلّا عند الإنسان، بلحاظه عقلاً وإرادة أو بامتلاكه لحرِّيَّة الاختيار، "فالتخلُّق وقف على البشر دون سائر الأحياء"[٢٣]. وإنَّه لَمَّا كانت مظاهر الأخلاق لا تتجلَّى إلّا في المجتمع الإنسانيّ، ذلك "أنَّ الإنسان كائن أخلاقيّ منذ أن وُجِد كائناً اجتماعيّاً"[٢٤]، كانت النتيجة أنَّ الإحسان مطلبٌ أخلاقيٌّ تفرضه الضرورة الأخلاقيَّة من جهة الإلزام، وتقتضي توفّره في كلِّ فعل يقوم به الإنسان العاقل على صعيد الذات والمجتمع. ولكن مع التأكيد أنَّه لا يمكن أن تأتي به على وجهه الصحيح إلّا ذاتٌ عارفة تمتلك الإرادة الخيّرة والرغبة الصادقة في سيادة الخير وانحسار الشرّ في كلِّ فعل يُبادَر إليه من قبل الإنسان الخَلوق أو يُنتظَر منه. يترتَّب على هذا توفُّر عناصر المسؤوليَّة الأخلاقيَّة لذلك الإنسان عن نتائج ما يفعل، ولذا أحقيَّته بتلقِّي الجزاء المناسب. ولذا "فالإحسان زائد على العدل، فتحرِّي العدل واجب، وتحرِّي الإحسان نَدْب وتطوُّع، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾(النساء ١٢٥). ولذلك عظَّم الله تعالى ثواب المحسنين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِيْنَ﴾(العنكبوت ٦٩). وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِيْنَ﴾ (البقرة ١٩٥)"[٢٥].

وهكذا يكون الإحسان حسب فلسفة الأخلاق، بمثابة التتويج اللازم لكلِّ فعل إنسانيّ يبتغي فاعله تحقيق مبدأ الخير الأمثل أو قيم الخيريَّة التامَّة فيه. إنَّه الميزة الأخلاقيَّة التي تطبع عمل الفاعل الأخلاقيّ (المُحسِن) بصِبغة كماليَّة تجعل جزاء الإحسان ومكافئَه هو الإحسان فقط. وشاهد ذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ﴾(الرحمن ٦٠)، فلم يقل سبحانه "وهل" مستفسراً ولم يقل "فهل" مستأنفاً أو مستدركاً؛ إنَّما قال "هل" مؤكّداً ومحكِماً عن يقينٍ وإطلاق.

٢٢ الأصفهاني، ٢٣٦.
٢٣ العوا، عادل. الفلسفة الأخلاقيّة (دمشق: مطبعة ابن حيّان، ١٩٨٨)، ٥.
٢٤ العوا، ٦.
٢٥ الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ٢٣٦_ ٢٣٧.

ثالثاً- قراءة فلسفيَّة لِلُغة الحديث النبويّ الشريف:

١- فلسفة المبنى (بنية الحديث):

إنَّ مبنى تعبير ما مكوَّنٌ من الألفاظ الداخلة في إنشائه بترتيب يناسب وظيفته البيانيَّة التي وُجِد من أجلها، ودقَّة بناء التعبير وإيجازه تعكس مهارة المُعَبِّر وتمكُّنه، كما تمكِّن المتلقِّي للتعبير من الوقوف على حقيقة معناه وغاية دلالته. حيث يُلاحَظ أنَّ نصَّ الحديث الشريف بكامله، قد حاز على هذه الميزة. لكنَّ حديثنا سيتركز على بنية جزئه الخاصّ بالإحسان، الجزء الثالث ونصّه هو: "**قال: ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك**". هذا النصّ مكوَّنٌ بنيةً من عدد قليل من الألفاظ (لا يتجاوز العشرة) وقد ربط بينها عدد محدود من الأحرف والضمائر المناسبة لعلاقة تلك الألفاظ ببعضها، دون إسهاب مُمِلّ ولا إيجاز مُخِلّ. فبدت مرتبة وفق نظْمٍ سجعيّ بديع، يُطرب السامع ويُسَهِّل عليه الحفظ والاسترجاع، ويُقَرِّب المعنى إلى الذهن. وهو أسلوب تعبيريّ معروف عند أصحاب البيان لنقل التعاريف القواعد العامَّة والحكمة وغيرها، وله جدارته وجدواه. وهذا الأسلوب مستعملٌ في اللُّغة العربيَّة بكثرة، غايته لفت الانتباه إلى ما يُقال، واستحضار الشعور بأهمِّيَّة ما يقال ودقَّة معناه وضرورته. إنَّ هذا القول البديع قد جمع بين خبرين عن حادثتين متشابهتين بالحيثيَّات الفعليَّة من جهة فعل الرؤية، ومختلفتين بإمكانيَّة الحدوث الفعليّ إلى درجة التناقض، من جهة قيام الفاعل حقيقة بتلك الرؤية. فهما وفق نصّ الحديث وبنيته اللَّفظيَّة وإفادة معناه يشير إلى رؤية مستحيلة من قبل الإنسان لحضرة الحقّ سبحانه. وأخرى واقعة فعلاً ومستمرَّة في كلِّ الظروف والأحوال من قبل الله تعالى للإنسان؛ وتلك هي دلالة من دلالات ألفاظ الحديث أيضاً.

ذلك أنَّ قوله ﷺ: "كأنَّك تراه" تفيد ضمناً استحالة الرؤية الحسِّيَّة (الإبصار) من قبل الإنسان لله سبحانه لتنزهه عن التجسيم، فأتت "كأنَّك" ولم تأتِ "إنَّك"، فالكاف أكَّدت التشبيه فقط. و"كأنَّ" هنا تشير إلى تقارب الحال مع تأكيد عدم المطابقة، لابل إنَّها تُظهِر استحالة الحدوث. فهي نحو قول القائل: "كأنَّه هو، لكنَّه ليس هو"، أي إنَّه ليس هو بذاته

ولكن يشبهه تماماً. ثُمَّ نجد نصَّ الحديث قد استدرك المعنى وأتمّه مؤكِّداً تلك الدلالة من خلال قوله ﷺ: "فإن لم تكن تراه، فإنَّه يراك". لقد استُعمِلت لم الجازمة النافية لتنفي – جازمةً – الرؤية الحسِّيَّة من قبل الإنسان لله سبحانه، وأكَّدت "إنَّه" حدوث الرؤية يقيناً من قبل الله تعالى للإنسان. أمَّا كلمة "يراك" فهي فعل مضارع يفيد مؤكِّداً حدوث رؤية الخالق واستمراريتها لمخلوقاته في الظروف والأحوال كافَّة؛ وهذا أمرٌ مؤكَّد بالبراهين الحسِّيَّة والعقليَّة معاً.

وبيان ما سبق فلسفيّاً: أنَّه إن سَأل المؤمن أو سُئِل عنه، كأن يقال: ما دليلك أنَّ الله تعالى يراك؟ فسيكون الجواب الحاضر بداهة، عند المنصف بالقول: ما دام يرعاك فإنَّه يراك. والرعاية واقعة فعلاً ومستمرة استمرار الكينونة لكلِّ مخلوقٍ حيّ. وهي لا تكون، البتَّة، دون رؤية فعليَّة ودراية كُلِّيَّة بالمخلوق وبجميع أحواله من الخالق بما هو إله، وهو الإله سبحانه. لا بل إنَّها رعاية حادثة، أي لها بدايتها ونهايتها المحدَّدتين بدقَّة، والمرتبطتين ظاهراً بالأسباب الملزِمة إلى درجة الحتميَّة علميّاً، وباطناً بغايات موجبة إلى درجة الضرورة فلسفيّاً. وإنَّها لتشمل الكيان الجسديّ بحفظ أجهزته وضمان تناسق وظائفها وتكاملها، وتشمل كذلك الكيان النفسيّ بحفظ قواه النفسيَّة من حسِّيَّة وحركيَّة ومعرفيَّة بتنوعها وتعديلها المستمرّ. أمَّا البرهان على ذلك، فنسوقه كما يلي:

إنَّ حفظ الجسد مُدرَكٌ ومعروف بالتجربة الذاتيَّة لكلٍّ منا! وهو معقول بالارتباطات السببيَّة في علم الطِّبِّ. وهذا حفظ تُوفِّره التغذية المناسبة وتضمَنُه الرعاية الصِّحيَّة وقايةً وعلاجاً؛ لكن من الذي يعاير العناصر في الدم وينقي البول.. مثلاً؟ صحيح أنَّها أجهزة ووظائف فيزيولوجيَّة معروفة بالظاهر والتجربة، لكنّ الإشراف الحقيقيّ حاصل بفضل التجلّي الرَّبَّانيِّ بعلم شموليّ وقدرة كُلِّيَّة؛ فالجسد الميِّت في كثير من الحالات تكون بعض أجهزته سليمة لكنَّها لا تعمل، وعندما تُنقَل إلى جسدٍ آخر حيّ تعود لتعمل من جديد. والسَّبب هو فقد الروح، ولكن ما الروح؟ ومن الذي منحها لفترة العمر ثُمَّ أخذها؟

إنَّ الإجابة مهما كان نوعها، تؤكِّد للمنصفين فلسفيّاً توفُّر الدليلين الحسِّيّ والعقليّ على حدوث الرعاية واستمراريتها مدَّة الحياة تفضُّلاً وإحساناً من الخالق سبحانه للمخلوقين،

ولذلك رؤيته المستمرَّة حقّاً لهم، فالرؤية تضمَّنت الرعاية. وكذلك فإنَّ حُسْنَ رعاية الخالق للإنسان، بقدر دقَّتها وعِظم فائدتها وتعقُّد وظيفتها، توفّر استطاعة كلِّ إنسان منصف أن يلمس آثار رحمة ربِّه في جسده ونفسه وكلّ خلقه الذي يتعامل معه. ولذا تستوجب منه الشكر للخالق العظيم، ولا يكون ذلك إلّا من خلال الإحسان في العبادة.

٢-الأبعاد الفلسفيَّة لمعنى العبادة وفق دلالة ألفاظ الحديث النبويّ الشريف

يُلحَظ من بنية الحديث الشريف أنَّه، وكما أشار إلى الرعاية، تضمّن فحوى العبادة والغاية منها أيضاً. ذلك أنَّ خطاب الحديث وُجِد فيه طلب العبادة من خلال الفعل المضارع المنصوب "أن تعبدَ الله" وفي هذا إخبارٌ مضمرٌ عن فحوى العبادة الحُسنَى وكيفيَّتها وغايتها.

وهذا الإخبار أو الطلب يُستنبَط بوجهتين، الأولى: أنَّ الله سبحانه وتعالى، وهو بهذه العظَمة والقدرة والعلم والرحمة، هل يحتاج إلى عبادتي؟ والثانية: هذه الإحاطة الشاملة والرعاية التامَّة لكلِّ شأني، هي حقّاً تستوجب العبادة. ولكن إذا ما حدث تقصير متعمَّد أو جحود – وهو ما لا يحدث إلَّا لجهل يردفه عُجْبٌ ويُوجِّهه هوىً مُتَّبَع- أي إذا ما حدث الكفر بدل الشكر، فكيف سيكون التذكير والتأديب؟

وبالرَّدِّ على السؤال الأوَّل الذي تطرحه الوجهة الأولى، وجهة العبادة لله وحده يمكن القول فلسفيّاً: مؤكَّدٌ أنَّ الإله بما هو إله، لا يحتاج مطلَقاً إلى عبادة أيٍّ من خلقه؛ ذلك لأنَّ ثبوت حاجته إلى أيِّ شيء كان ومن أيَّة جهة، يلزم عنه عدم اتّصافه بالألوهيَّة. وهذا برهان نقض الفرض أو النقض بالنقض المشهور. وذلك لأنَّ الله سبحانه لا تبلغه نفعة ولا مضرّة من أيّ مخلوق كان، ولا يحتاج وسيطاً ولا شريكاً ولا عوناً من أحد.. إنَّه إله، فلماذا العبادة إذاً؟

إنَّ هذا المقام الإلهيّ العظيم يستوجب العبادة شكراً للمُنعِم وتزكيةً للمُنعَم عليه. إنَّ توجب الشكر للمنعِم هنا، أي العبادة لحضرة الحقِّ خالقاً، هي استحقاق لفضله لا حاجة إلى نفعه ولا دفع للضرر عنه سبحانه؛ فالاستحقاق شيء والاحتياج شيء آخر. مثاله كَبِرِّ الوالدين الذي هو استحقاق لإحسانهما في صغر الولد وتربيته في كبره، لا تلبية أو قضاء حاجة لهما؛ ولله المثل الأعلى.

أمّا التزكية للمخلوق المُنعَم عليه، فهي التي تشفي النفسَ - والإنسانيَّة بالذات- من أمراضها الكثيرة كالكِبر والحقد، وتضمن توجهها لضرورة العمل على إتمام الشكر، أي حُسن العبادة؛ وذلك لا يتمُّ إلَّا بزيادة المعرفة بالمُفضِل عن طريق آثار الفضل، وبالمُنعِم عن طريق حفظ النِّعم، أي من خلال تحصيل العلم وتحسين العمل. وفي هذا يقول الهرويّ عن مراتب الإحسان: "وأوَّل درجاته: الإحسان في القصد بتهذيبه علماً، وإبرامه عزماً"[٢٦] .

أمَّا الوجهة الثانية والجواب عن سؤالها: "إذا ما حدث الكفر بدل الشكر، فكيف سيكون التذكير والتأديب؟" فالتذكير كائن عن طريق الشرائع، وبواسطة الرُّسل والتبشير والإنذار أو التحذير، وبالرعاية والتدبير. أمَّا التبشير، فبالثواب والقرب من خلال الوعد بالمرغوب؛ وليس هناك من مرغوب حسِّيّ يفوق الجنَّة. وأمّا التحذير فبالعقاب والطرد أو الإقصاء من خلال الوعيد بما هو مؤلم حسِّيًّا، وليس هناك من مؤلمٍ حسّيٍّ يفوق التعذيب بالنَّار.

بعد هذا الخوض الفلسفيّ في التدليل على أحقِّيَّة الخالق العظيم بالعبادة، نظراً لتفضُّله بالرعاية الشاملة والمتضمِّنة في الرؤية المستمرّة لمخلوقاته. ننتقل إلى البحث عن فحوى العبادة الحُسْنى وكيفيَّتها كما تُصوِّرها ألفاظ الحديث الشريف ودلالة معانيه. فقد وردت في الحديث عبارة **"قال: ما الإحسان؟ قال: أن تعبدَ الله كأنك تراه"**. هذا التعبير وبهذه الصيغة، إنَّما يدلُّ على أنَّ المطلوب لبلوغ مرتبة الإحسان هو كمال العبادة والإخلاص بها لله وحدَه. وبذلك يقول الراغب الأصفهانيّ: "العبوديّة: إظهار التذلُّل، والعبادة أبلغ منها؛ إنَّها غاية التذلُّل، ولا يستحقّها إلَّا من له غاية الإفضال، وهو الله تعالى، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوْا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (الإسراء ٢٣)"[٢٧].

وإنَّ كمال العبادة لا يُدرَك إلَّا بتحسينها المستمرّ، إذ لا حدَّ لحسنها يمكن للعابد أن يُدركَه، ولهذا تُقبَل منه على قدر استطاعته شرط الإخلاص، ولذا كان للإحسان مراتب ومقادير تزيد وتنقص. ثُمَّ إنَّ ورود كلمة الإحسان قبلَ طلبِ العبادة مباشرةً، إشارة إلى أنَّ العبادة بحدوث الرؤية تصبح تعريفاً للإحسان أو أحد تعاريفه، وهو ما أكَّده حرف النصب "أنْ" مُدلِّلاً

٢٦ الجوزيّة، تهذيب مدارج السالكين، ٤٥٦.
٢٧ الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ٥٤٢.

مع فعله المضارع على أنَّ تلك العبادة بوجود الرؤية القلبيَّة، هي، حقّاً، معنىً من معاني الإحسان الدقيقة، ودلالة عميقة من دلالاته. لقد تعرض ابن القيِّم الجوزيَّة لتلك الدلالة في شرح هذا الحديث، بقوله: "أمَّا الحديث، فإشارة إلى كمال الحضور مع الله عزَّ وجلَّ، ومراقبته الجامعة لخشيته ومحبّته ومعرفته والإنابة إليه والإخلاص له، ولجميع مقامات الإيمان"[٢٨].

ولكن لمّا كانت رؤية الإنسان العابد الحسِّيَّة للخالق المعبود مستحيلة، كما بيَّنَّا سابقاً. كان لا بدَّ من إتمام المعنى بإتمام المبنى في الحديث الشريف، أي الإشارة إلى سبيل العبادة الحُسنى الممكن اتّباعه لتحقيق درجة الإحسان أو مرتبته المرادة. وهنا أتمَّ النبيُّ ﷺ قوله بالعبارة: **"فإن لم تكنْ تراه فإنَّه يراك"**؛ فالاستئناف الأوَّل يشير ضمناً إلى استدرك لانعدام الإمكانيّة في تحقيق الطلب أو استحالتها لأسباب موجِبة، يعلمها الطالب وهو هنا النبي ﷺ، ولا يوجد احتمال لإزالتها ولا قدرة عند العابد على مباشرتها، عبّرت عن ذلك "لمْ" الجازمة. ولذلك جاء الاستئناف الثاني وفيه إشارة إلى بدءٍ بعد انتهاء، أي أنَّه لما انتهت إمكانيَّة رؤيتك أيُّها العابد لله معبودك من جهة الحسّ – رؤيتك له، كان أمامك سبيل آخر، ألا وهو استشعارك اليقينيّ بأنَّه يراك، ولهذا يُطلب منك الاستمرار في محاولة تحسين عبادتك لله لتحقيق درجة من الإحسان تتناسب مع قدرتك. ولمَّا كان التحسين هو فعل مراد ومقصود، يتمُّ بتصوُّر استمرار رؤية المعبود للعابد، باستشعار مراقبته والاطِّلاع المباشر على أحواله. كان مؤكَّداً أنَّ حدوث هذا التصوُّر عند الإنسان المؤمن، كفيل بأن يجعله يُخلِص تمام الإخلاص في عبادته لخالقه.

ولكن يذهب الفقهاء والمفسِّرون إلى أنَّ "العبادة ضربان: عبادة بالتسخير..، وعبادة بالاختيار، وهي لذوي النطق، وهي المأمور بها، في نحو قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوْا رَبَّكُمُ الَّذِيْ خَلَقَكُم..﴾(البقرة ٢١). وقوله: ﴿وَاعْبُدُوْا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوْا بِهِ شَيْئًا..﴾(النساء ٣٦)"[٢٩]. فعبادة التسخير في رأيهم، لا تحتمل الاختيار ولا تشترط الإرادة، وهي لغير الناس كالملائكة مثلاً[٣٠] . أمَّا عبادة الاختيار فهي المعنيّة في الحديث الشريف، والمرغوب بها من المحسنين. ولكنّ وجود الاختيار فلسفيّاً يفترض وجود الحرِّيَّة والإرادة. ووجود هذه الشروط /

٢٨ الجوزيّة، تهذيب مدارج السالكين، ٤٥٦.
٢٩ الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ٥٤٢.
٣٠ الأصفهاني، ٥٤٢.

العناصر جميعاً، يفترض ومن جهة الضرورة الفلسفيَّة، وجود مَلَكات الاختيار والمفاضلة كالعقل والهوى بالنسبة إلى النفس الإنسانيَّة. ولهذا "يصحّ أن يقال: ليس كلُّ إنسان عبداً لله، فإنَّ العبد على هذا المعنى العابد، والعبد أبلغ من العابد، والناس كلّهم عباد الله، بل الأشياء كلّها كذلك، لكنّ بعضَها بالتسخير وبعضَها بالاختيار"[٣١]. وهي عبادة الإنسان بما هو كائنٌ عاقل مريد ومختار. ولكن لماذا تتوجَّب على الإنسان هذه العبادة؟ هذا ما سيدور الحديث عنه في الفقرة التالية، والأخيرة قبل الخاتمة من البحث.

٣- أثر انعكاس الإحسان على الإنسان (تحصيل السعادة)

توصّلنا فيما سبق إلى القول: إنَّ بنية الحديث الشريف بالصيغة التي وجدناها، ومعناه الذي عكسته دلالة تلك الصيغة؛ قد تضمّنا إشارة واضحة إلى المتطلَّبات التي تُوصِل العبدَ المؤمن إلى مرتبة الإحسان. وإنَّ تحقيق هذه المرتبة لا يكون إلَّا من خلال قيام العبد المؤمِن بالعبادة الحُسنى، وقد فصَّلنا في: أنَّ أسبابها الموجِبة تكمُن في ضرورة الشُّكر على الفضل والرعاية التّامة. وأنَّ سُبلها تكمن أصلاً في استشعار العبد دوام مراقبة الله له، فيُخلِص النيّة ويُصلِح العمل. وأنَّ جوهرها أو فحواها يَكمُن في كونها انعكاساً مباشراً لإرادة واختيار عابدٍ مطلبُ نفسِه رضوانُ ربِّه. هذه المحدّدات الثلاثة تكتمل بالغاية المترتِّبة على تلك العبادة، وبالتالي على الإحسان، ألا وهي تحصيل السعادة. وهذا يتطلَّب معرفة أثر انعكاس الإحسان على الإنسان، وهي في ظنِّنا غاية الحديث الشريف الذي نتحدَّث عنه.

ينطلق البحث عن الغايات من السؤال الاستفساريّ: لماذا؟ أي لماذا فُرِضَت العبادة؟ ولماذا يجب الإحسان بها؟

وفي محاولة الإجابة عن السؤال نعود مجدَّدا إلى الحديث الشريف، وهذه المرَّة إلى ختامه حيث قال النبيّ ﷺ: "هذا جبريلُ جاء يُعلِّم الناس دينهم"[٣٢]. وهنا نطرح السؤال التالي: لماذا يجب على الناس أن يتعلَّموا دينهم؟ والجواب: لإتمام العبادة والوصول إلى مرتبة الإحسان فيها، أي العِبادة الحُسنى. والجواب نعم! ولكن ومن وجهة نظر فلسفيَّة بحتة،

٣١ الأصفهاني، ٥٤٣.
٣٢ النيسابوري، صحيح مسلم، رقم٥٠/ ١٧.

نقول: إن كانت العبادة لا تنفع ولا تضرّ المعبود شيئاً، باعتبار ألوهيَّته؛ فمَن المستفيد من العبادة إذاً؟ وكيف؟!

هنا، وعلى هذا المستوى الفلسفيّ، أي بَعد اليقين بأحقِّيَّة الله سبحانه، بما هو خالق ومنعم ومحسنٌ، للشكر على فضله وإحسانه، وبعد التأكيد أنَّ فحوى العبادة بإطلاقها هي الشكر بمعناه. لا يبقى لنا إلَّا أن نقول: إنَّ المستفيد من العبادة هو العابد نفسه. وذلك لانعكاس أثر تلك العبادة إيجابيّاً عليه، جسداً ونفساً. حيث يظهر هذا الأثر من خلال إصلاح العلاقة مع الذات والخالق والخلق أجمعين، فيكون في المرء صلاح. وهو صلاحٌ يُوَلِّد طُمأنينة في نفس العابد، تجعله مبادراً إلى فعل الخير طواعيّة، ومنصاعاً لمطلب الحقِّ ولو على نفسه، ومُؤثِراً أداء الواجب عمّا سواه. إنَّ نفساً بهذه الطمأنينة لا شكَّ في أنَّها تكون سعيدة، وترقى بإحسانها في مراتب السعادة.

وإنَّ تلك الطُّمأنينة في الأحوال التي تُحَصِّلُ السعادة للعابد في حياته، جديرة بأن تنتقل إلى طُمأنينة عن المآل في آخرته. وهذه غاية تعلُّم الدين وتعليمه، وغاية تحقيق مرتبة الإحسان، ومبتغى العبادة المطلوبة من الإنسان. يقول ابن قيّم الجوزيَّة عن منزلة الإحسان: "وهي لبّ الإيمان وروحه وكماله، وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل، فجميعها منظومة فيها.. "[٣٣] . أي إنَّها لا تكون إلَّا لإنسانٍ مؤمنٍ عابدٍ لربِّه بإحسان، وهي غاية الحديث ودلالة من دلالات فلسفة مبناه ومعناه.

٣٣ الجوزيّة، تهذيب مدارج السالكين، ٤٥٦.

النتيجة:

نستنتج ممَّا سبق أنَّ: دقَّة تعبير البيان وإن كان موجَزاً، تشحذ الفكر وترشد العقل إلى معانٍ كثيرة للعبارة القصيرة. وحديث الإحسان "أنْ تعبدَ الله كأنَّكَ تراهُ، فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنَّهُ يراكَ"، كان من ذلك القبيل.

كذلك فقد ظهرت بعض مدلولات ألفاظ الحديث المذكور ومكنونات معانيه من خلال فلسفة مبناه ومعناه، وفق سياق التحليل اللُّغويّ الدارج في فلسفة اللُّغة. فتبيّن لنا أنَّ بنية الحديث المُحكَمَة بسجعيّتها التي تطرب لها نفس المؤمن: تُسهِّل عمليَّة حفظه ونقله أو تبليغه عن النبي ﷺ للتابعين.

وأنَّ هذه البنية بتركيبها اللُّغويّ المتين وترتيب ألفاظها، قد ضَمِنَت للشارح والمُفَسِّر – وحتَّى المُؤَوِّل – حُسنَ الفهم، ومكَّنتهم من الدراية بالسُبل الموصلة إلى مرتبة الإحسان، مرشدةً للغاية منه. وقد تمثَّلت تلك السُّبل بالعبادة الحُسنى، أمَّا الغاية فظهرت لنا في محاولة تحصيل السعادة القصوى للإنسان.

ختاماً: نأمل من هذا البحث الفلسفي اللُّغويّ المتواضع، بعد أن حاولنا جهدَنا إظهاره بشكل حسنٍ، ولا سيَّما أنَّه يبحث في الإحسان، أن نكون قد أعطينا نصّ الحديث ومعناه بعضَ ما يستحقَّانه من عناية وتدبُّرٍ وتحليل. ونأمل ثانياً: أن نكون قد وُفِّقْنا لما فيه نفعٌ لكلِّ طالب نفعٍ. ولا ندّعي الكمال، فالتقصير منّا، والتوفيق بفضل الله ورحمته.

المصادر:

القرآن الكريم

أبوداود، ولاء. "مفهوم اللُّغة،" ٢٠٢٤.

ابن سينا. الشفاء(المنطق). تحقيق محمود الخضري. القاهرة: المطبعة الأميريّة، ١٩٥٢.

الأصفهاني، الراغب. مفردات ألفاظ القرآن. تحقيق صفوان داوودي، د.ت.

الإفريقِيّ، ابن منظور. لسان العرب. ط٣. بيروت: دار صادر، ١٤١٤.

الامام علي عليه السلام. نهج البلاغة. شرح محمد عبده. بيروت: دار المعرفة، د.ت.

الجوزيّة، محمد بن قيم. تهذيب مدارج السالكين. بيروت – لبنان: مؤسسة الرسالة ناشرون، ٢٠٠٤.

الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد. مختار الصحاح. تحقيق أحمد عبد الغفور عطار. ط٤. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٧.

الحلايقة، غادة. "مفهوم اللُّغة في الفلسفة،" 2024 https://mawdoo3.com.

الصالح، عبد الحميد. مبادئ الفلسفة. دمشق – سوريا: المطبعة الجديدة، ١٩٨٨.

العوا، عادل. الفلسفة الأخلاقيّة. دمشق: مطبعة ابن حيّان، ١٩٨٨.

النيسابوري، مسلم بن الحجاج. صحيح مسلم. ط٢. بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.

بن يونس، شهرزاد. محاضرات في علم الدلالة. الجزائر: جامعة الأخوة منتوري قسنطينة١، ٢٠٢٠.

خليف، سميحة ناصر. "مفهوم اللُّغة اصطلاحاً،" 2024 .https://mawdoo3.com

زيدان، محمود فهمي. في فلسفة اللُّغة. بيروت – لبنان: دار النهضة العربيّة، ١٩٨٥.

سيرل، جون. الأعمال اللُّغويّة، بحث في فلسفة اللُّغة. ترجمة أميرة غنيم. تونس: دار سيانترا، ٢٠١٥.

صويلح، هشام. "فلسفة اللُّغة." مجلة المغري للدراسات اللُّغويّة مجلد٣، العدد٢. (2020).

عبد الرحمن، صالح. بحوث ودراسات في علوم اللسان. الجزائر: موفم للنشر، ٢٠٠٧.

عمر، أحمد مختار. علم الدلالة. ط٥. القاهرة: عالم الكتب، ١٩٩٨.

فيتجنشتاين، لودفيغ. رسالة منطقيّة فلسفيّة. ترجمة عزمي إسلام. القاهرة–مصر: مكتبة الأنجلو المصريّة،١٩٦٨.

قارة، نبيهة. مدخل إلى فلسفة اللُّغة. صفاقس، تونس: الوسيطي للنشر، ٢٠٠٩.